من آيات الله

فى مد الأرض

قال تعالى فى سورة الرعد: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

والمتأمل فى هذه الأية الكريمة : يجد أن الخطوط العريضة فى لوحة الأرض، هى مدُّ الأرض وبسطها أمام النظر، وانفساحُها على مداه. لا يهم ما يكون شكلها الكلى فى حقيقته، إنما هى مع هذا ممدودة، مبسوطة، فسيحة، متسقة.

هذه هى كما يقول صاحب الظلال: اللمسة الأولى فى لوحة الأرض، ثم يأتى بعد ذلك رسم خط الرواسى الثوابت من الجبال، وخط الأنهار الجارية فى الأرض، فتتم الخطوط العريضة الأولى فى المشهد الأرضى متناسقة متقابلة.

وهنا على هذه الأرض معارض مختلفة، تتفاوت فيها أنظار الناظرين. فبعض الأنظار تقف على حدود النظرة الملقاة على هذه الأرض، فلا ترى إلا آفاقاً فسيحة ممتدة، تتحرك عليها أشياءٌ أشبه بالأطياف، لا تتبين العين فيها شيئاً، على حين تَنْفُذُ بعض الأبصار إلى مدارج النمال، وأفاحيص القطا، فترى فيها من عظمة القدرة، وجلال العلم، وروعة الحكمة، ما يملأ القلب خشوعاً، وولاء، وحمداً للخلاق العظيم، ربِّ العالمين.

فهذه الأرض المبسوطة على امتداد البصر، تقف عندها بعض الأنظار، ولا تتجاوزها. وهذه الجبال الراسية عليها هى أبرز ما على هذه الأرض، تتعلق بها الأنظار، وتُمْسكُ بها، ثم هذه الثمار التى معاش الإنسان إن لم يلتفت إليها ببصره ألجأته الحاجة إلى أن يسعى إليها بقدمه، ويقلب وجوه الأرض باحثاً عنها

بيده. وقد حفَلت سورة الرحمن بمشاهد من النعم الأرضية التى تبهج النفوس، وتؤثر فى الأحاسيس، وهى تدل على ما جعل الله فى الأرض من مظاهر النعم والمنافع للعباد، مما سخر لمنفعتهم وخدمتهم. قال تعالى: ﴿**وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ [الرحمن: ١٠-١٣].

وانتفاع الإنسان بما فى الأرض من النعم تكريمٌ له، وإعلاءٌ لشأنه، وإظهار لمعنى خلافته فى الأرض. قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ [الإسراء: ٧٠].

وفى تذليل الأرض، وتمكين الإنسان من الانتفاع بها، ما مهد له سبل الحياة عليها والانتفاع الكامل بها، وتلك نعمة كبرى. قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾ [الأعراف: ١٠].

إن الله خالق الأرض وخالق الناس، هو الذى مكن لهذا الجنس البشرى فى الأرض وهو الذى أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التى تسمح بحياة الجنس البشرى، وهو الذى جعلها مقراً صالحاً لنشأته، بجوها، وتركيبها، وحجمها، وبعدها عن الشمس والقمر، ودورانها حول الشمس، وميلها عن محورها، وسرعة دورانها إلى آخر تلك الموافقات.

وإذا كانت الخطوط العريضة فى لوحة الأرض هى مد الأرض فمما يناسب الخطوط الكلية، ما تحتويه الأرض من الكليات، وما يناسب الحياة فيها من كليات كذلك.

وتتمثل الأولى: فيما تنبت الأرض: ﴿**ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين**﴾.

وتتمثل الثانية: فى ظاهرتين الليل والنهار ﴿**يغشى الليل النهار**﴾ والمشهد الأول: يتضمن حقيقةً لم تُعرفْ للبشر من طريق علمهم وبحثهم إلا قريباً، وهى أن كل الأحياء- وأولها النبات- تتألف من ذكر وأنثى حتى النباتات، التى كان

مظنوناً أن ليس لها من جنسها ذكور، تبين أنها تحمل فى ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث، مجتمعة فى زهرة متفرعة فى العود، وهى حقيقة تتضامن مع المشهد، فى إثارة الفكر، إلى تدبر أسرار الخلق، بعد تملى ظواهره.

والمشهد الثانى: مشهد الليل والنهار متعاقبين، هذا يغشى ذاك فى انتظام عجيب، هو ذاته مثار تأمل فى مشاهد الطبيعة.. فَقُدُومُ ليلٍ، وإدبار نهار، أو إشراق فجر، وانقشاع ليل، حادث تُهوِّن الألفة من وقعه فى الحسن، ولكنه فى ذاته حادث عجيب، لمن ينْفضُ عنه موات الألفة وخمودها، ويتلقاه بحس الشاعر المتجدد، الذى لم يُجمِّده التكرار.

وهذا الليل الذى يغشى النهار ويَلْبسُهُ، ويجعل بياضَه سواداً، ونوره ظلاماً، هذا الليل يشد الأبصار شدّاً إليه، لتتلمس طريقها فيه، وتَرْصُدَ المخاوف التى تطلع عليها منه.

والنظام الدقيق الذى لا تتخلف معه دورة الفلك، هو بذاته كذلك مثار تأمل فى ناموس هذا الكون، وتفكير للإنسان فى القدرة المبدعة، التى تدبره وترعاه ﴿**إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾.

ففى كل هذا أيات دلائل على وجود الخالق، وعلى قدرته، وعلمه. ولكن هذه الأيات لا تنكشف إلا لمن وجه إليها بصره، وأعمل فيها فكره، أما من أعراض عنها، وأغلق عقله وقلبه دونها، فإنه لا يرى من هذه الآيات إلا عوالم جامدة صماء، لا تنطق بشئ، ولا تحدث عن شئ.

قال تعالى فى سورة الجاثية: ﴿**إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الجاثية: ٣].

والمؤمنون هم الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله المبثوثة فى تضاعيف هذا الكون وثناياه. وحيثما قد الإنسان بَصَرَه، وجد آيات الله تطالعه فى هذا الكون الرحيب.. السموات بأجرامها وأفلاكها، والليل والنهار.

إن لحظة تأمل فى السموات، ولحظة تأمل فى صبح أو مساء، فى هدأة الليل أو فى زحمة النهار، لحظةً واحدة يتسمع فيها القلب البشرى إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب.

ولو مضت الأجيال تتأمل فى آيات الله، وتشير مجرد إشارة إلى ما فيها من عجائب، لانتفعت بالآيات، وازداد إيمانها بالخالق الذى خلق.

ولا شك فى أن تدبر هذا الكون وما فيه من نواميس متناسقة، كفيل بهداية القلب إلى خالق هذا الكون.

* * *